سبيل إلى معرفة الله

تامر جابر محمود

عناية القارئ الكريم: في الجزأين السابقين من هذه المقالة ، تساءلنا عن كُنه العلاقة بين نص المعادلة الكيميائية والفيزيائية ، وبين معرفة الله تعالى على الطريقة القرآنية . وأحسب أننا أجبنا لحدٍ ما عن هذا التساؤل . ونُكمل في هذا الجزء الثالث استكناه هذه العلاقة الحميمة . فلنشرع

لطالما تشدَّق المسلمون بأنهم الأمة التي تنتسب إلى الخالق .. ، فهل فهموا حكمته في موجوداته ؟!

المقصد من هذه المقالة :

• يغفل عامة أهل هذا الزمان – إلا من رحم الله – عن أن صفة الله (الحكيم) هي ما اقتضى تعيين بُنود هذا الوجود كله بَنداً بندا. وأن صفة الله (الخالق) هي سبب انتقال هذا الكون بما فيه من العدم إلى الوجود الملموس والمنظور، وأن صفة الله (البارئ) هي سبب كل وظيفة تؤديها موجودات هذا الكون، وأن صفة الله (الهادي) هي سبب مسلك كل موجُودات هذا الوجود، وأن اسم الله (المصوِّر) هو سبب وجود الأشياء على صورتها وعلى خِلقتها التي نراها بها. وأن صفة (الجميل) التي اتصف بها الخالق هي سبب كل جمال في هذا الوجود. وأن صفة الله (الوكيل) هي ما طبع مشاهد التصريف والقهر للكون والإنسان. فإن كان الله بحكمته وعلمه هو من قضى بتعيين أي الموجودات ستُوجد وأيها لا، ثم خلقها وبرأها وصورها، وقدَّرها تقديرا، وهداها، وكان وكيلاً عليها في كل ما عملته، فكيف لالتصاق كل هذا بلَدُن الله سبحانه يرى المسلمون في العلوم المسماة بالتجريبية والإنسانية والفلكية علوماً دنيوية ..... بالله كيف ؟!

• لفَت القرآن في غير موضع، انتباه المؤمن، أن الله خلق بالحق(وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ) سورة الجاثية: 22. قبل أن يُنزِلَ الكتاب السماوي بالحق. ليكون في الكون والوجود آلة لتعرُّف المؤمن على ربه، بالطريقة التي عيَّنها له وارتضاها منه كمؤمن. لا دليلاً على وجوده فقط، ولا شهادةً على القدرة والعظمة فقط، وإنما معرضاً وسبيلاً لمعرفة أسمائه وصفاته كافة. وصمَّم القلب ليتقبل حقائق الإيمان به، إن أتته عبر هذه السبيل الحق . فإذا تَلى ذلك تلقيه لأوامر الله ونواهيه ، نزلت تلك الأوامر على قلبٍ متيقن بالله، ثابت لا ينحني أمام الفتن أو المشاقّ أو الشهوات. ألم يكن ذلك هو الدرب التي سلكها الأنبياء جميعا صلوات الله عليهم قبل أن يأتيهم الوحي والنبوة ؟ فلم لا نعود اليوم لنطرقها فنكسب اليقين في الله ؟ ، ولم لا نُولجها أبناءنا منذ صغرهم برفق ، لينشئوا على اليقين في ربهم ، وفي رسالة دينهم التي تتجاوز نطاق الأفكار الضيقة ، لتشمل الكون الرحيب الذي خُلق وسُخر بكل ما فيه لخدمة بني الإنسان.

ألسنا نحن الأولَى بهذا ؟ ألم نكن نحن الذين قال لنا خالق كل ذلك لنا مباشرة:(قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢) الأعراف

• فإن كان الأمر كذلك ، وإن كانت تلك هي الطريقة القرآنية فأنى للمسلم من طريق أخرى يعرف بها ربه، وأي علم علمناه عن الله إذاً ؟ وأي استجابةٍ استجبنا إن لم نطرق هذه السبيل ؟.

• تمثل الاستجابة لهذا الشأن ، أداة عظيمة في جعل حياة المسلم كلها لله سبحانه ، مصداقاً لقوله تعالى: (قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢) . فبهذه الطريقة، يمارس المسلم عبوديته في التعرف إلى ربه بأسمائه وصفاته في معمل العلم حين يحلل الفيروسات والميكروبات ، وفي المشرحة حين يدرس علم التشريح.

وحين يُخرج منطاده ويُطلقه لدراسة طبقات الجو العليا، وحين يُصوِّب مرقابه الفلكي لعُمق الفضاء.

تتمثل عبودية العالم بمعمله، في دلالته المؤمنين على حكمة ربهم، وهدايته وتصويره وتقديره.

باختصار ... ، في تعريفهم بمن يعبدون

فإن أنجز المسلم عبوديته هذه في معمل العلم، خرج وقت الصلاة إلى المسجد ليمارس صورة أخرى من العبودية في المسجد.

• متى يعود خَطَّا علوم الربوبية المعروفة عند علماء المسلمين بعلوم (المعرفة والإثبات) وعلوم الألوهية (العبادات والمعاملات والأخلاق)، ليلتقيا مثلما هي سُنَّة النبوة وطريق القرءان ؟! ، فأي معرفة عرفناها عن الله بغير دراسة تفاصيل كونه ، وأي إثبات قصرنا فيه ؟ ، وأي بصيرة أغفلتنا عن كون توحيد الألوهية ليس إلا مقتضى الربوبية واستحقاقاتها ؟

• للحياة بشتى صورها ظاهر وباطن، وما لم يعلم المسلم علم التفصيل هذا الظاهر، لن يجد سبيلا لإدراك الباطن منه. فيفوته الظاهر وهو سبيل العز في الدنيا والانتفاع بتسخير الأكوان له وسبب تسلُّط الكافرين وسيادتهم ، ويفوته الباطن أيضاً.

• (إن الله كتب الإحسان على كل شئ)، وما لا يتم الواجب إلا به فواجب. فطريقة معمل العلم والمجهر الدقيق والمرقاب الفلكي، هي الطريقة الواجبة للتعرف إلى الله، لأنها أحسن الطرق وأتقنها (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه). وأن موضع التأكيد على ذلك هو:

1. كتاب الدين الذي تنشره وزارة التعليم في مصر ،
2. الوثائقيات المفترض أن تقدمها الفضائيات الإسلامية (زعماً) ، لتوصيل هذه المفاهيم العليا لعوام الناس بالنهج المبسط لبرنامج (العلم والإيمان)، الذي قدَّمه الدكتور مصطفى محمود، بدلاً من انشغالها بما لا ينفع.
3. كتيبات مهرجان القراءة للجميع الصيفي، والمرئيات المجانية على موقع يوتيوب.
4. الخطب والعظات من على المنابر بالمساجد والملتقيات الدعوية.

• يئن علماء الغرب وحدهم حَزَناً وأسفاً، في كل مرة يتعرض فيها أحد الكائنات السامة والمميتة للانقراض. أما المسلم فلا يكاد يُلقي للأمر بالاً. وفي حين يتجلى للفئة الأولى مبررها في هذا الحزن الأليم على انقراض كائن ، وإن كان سحلية سامة. يقترف المسلم خطيئة فادحة بهذه اللامبالاة، لأن الخسارة الأعظم في الحقيقة من نصيبه هو. فمبرر أسف علماء الغرب حال انقراض كائن سام مثلاً، أن بعض هذه الكائنات تُركِّبُ بجوفها ما بين مائتين، وبين ألف مركبٍ سُمّي. أو قد يصل عدد السموم التي تركبها لمائة ألف من السموم في جنسٍ واحد من الأجناس. وبكل هذه السموم خيراتٌ لا تُحصى بحسب ما تشير الدكتورة (جريتا بينفورد) الخبيرة البيولوجية، «فحتى سمومها تلك، منجم ذهب من الكيمياء ومن التفسيرات والاكتشافات. والمُحزن في انقراضها، أنها ستفنى وتختفي قبل أن نتعرَّف على ما فيها من غِنى». ويضيف على قول تلك العالمة، ما قاله عالم الأحياء الجزيئية "برايان فراي" من جامعة ملبورن الاسترالية، عن المأساة في انقراض أحد تلك المخلوقات السامة: «إنها مصادر إذا قضينا عليها، كأننا ندمر مُكوناً طبياً قد ينقذ حياة جدتك، أو يُكسبك مليار دولار إن صنَّعته كدواء». أما (جون بوش) الباحث وطبيب الطوارئ في مركز لوماليندا الطبي بجنوب كاليفورنيا فيقول عن السموم: «إنها الوسيلة الوحيدة لفتح هذا الصندوق الأسود. فما يستطيع السم أن يفعله لمساعدتنا شئ مذهل. إنه شئ جبار. يمكنه قتلك، ويمكنه أيضاً إنقاذ حياتك» اهـ . كان هذا مبررهم في الأسى حيال انقراض كائن سام يقطن حفرة في مكانٍ منعزل، وإذا ما التقى إنسان يقتله على الفور. أما المسلم فهل له من سندٍ في لامبالاته ...؟!

لنتأمل منهج القرآن في بيان تصريف الله لأكوانه وخلقه الذين يسكنونها:

يقول الله عن نفسه (فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦) ، ويقول سبحانه أيضاً عن نفسه (إِذَآ يَشَآءُ قَدِيرٞ) . لكن كُلاً من القدرة وإنفاذ المشيئة، مسبوقتان بالأولية والعلم والحكمة. ثم هما مقترنتان بالخلق والإبراء الإلهي والتقدير الإلهي، والتسوية الإلهية، والإحسان الإلهي والإبداع الإلهي، والتصوير الإلهي والعدل الإلهي، والإتقان الإلهي، والهداية الإلهية، والجمال الإلهي والقيومية الإلهية. ثم هما محاطتان بالشهادة الإلهية على كل شيء والوكالة الإلهية عن كل موجود، ومآلهما إلى الآخرية الإلهية. وذلك في كل مخلوق وموجود وعدم.

1. إذا اقتضت الحكمة خلق شيء وإيجاده
2. تحققت المشيئة الإلهية
3. يتلوهما إنفاذ المشيئة والاقتدار

فهل أعلمك الله بهذا كله ، لمجرد الإعلام ؟! ، وهل قصَّ عليك ذلك كله لتسليتك ؟، أو لكي تسمع إخباراته فتُلقيها خلف ظهرك ...؟، ألم يرسل إليك أنبياءه بذلك لتدرس آثار أسمائه وصفاته في ذلك كله ... ؟

ولتُنصت بنفسك للإجابة، إجابة الله تعالى:(أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩) العنكبوت

(قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ) العنكبوت

• فيا حسرة المسلم قبل غيره لانقراض مخلوق وإن كان ساماً أو ضاراً (أو انقراض لغة)، وقبل أن نتعرف لتجليات أسماء الرب العظيم، وآثارها فيه. ويا لفوات فرصة الانتفاع من تسخير الله إياه لنا. إن ذلك يشبه سطراً من ديوان الوجود قد تم محوه، قبل أن نطَّلع عليه.

• فإن فات على المسلم التنعم بمعرفة الله من أحد مخلوقاته، ولم يغتنم الفرصة حتى أنقرض هذا المخلوق، فلرُبما تبدَّت له في الحفريات fossils وعلم الكائنات المتحجرة Paleontology فرصة ثانية. فيعرف عن الكائن بعد انقراضه، ما فات عليه معرفته عنه حياً.

• فلقد هيئ الله هذه التربة المتحجرة وأودع فيها هذه الخاصية (خاصية الحفظ)، حتى تحفظ الكائنات في حالة ممتازة ، وإن سبق عصرها ما قبل نزول الإنسان الأرض وإسكان الله له إياها. ولا يقتصر الأمر على الكائنات ما دون الكائن البشري وحدها، بل وحفظت لنا هذه التربة جثامين البشر من عصور سحيقة، وسجَّلت في ديوانها المتحجَّر وقائع باهرة عن تصريف الله دهوره وأزمانه.

فهذان العلمان (المتحجرات والحفريات) من أَجَلِّ العلوم الشرعية والإسلامية لينشغل بها المؤمن، ويُكرِّس حياته لاستخراج كنوزهما ونشرها بين المؤمنين الباحثين عن ربهم.

• لَمْ نُعلِّمْ أبناءنا أبداً أن كل مخلوق في عمق السموات (ودوابها) أو الأرض بدوابها وما ببطنها ، إنما خُلق مُسخراً لبني الإنسان ، والمؤمنون أولى به من غيرهم. قال تعالى:(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣) الجاثية

حتى الفيروسات المُهلكة، حتى الميكروبات القاتلة ، حتى الأفاعي بسمومها التي تتجاوز العشرون مليونا من السموم، كل ذلك خُلق مسخرا لخدمة بني الإنسان. فلما ساد الجهل بذلك، انتفت صفة المؤمن بالكون من حوله، واستغرق بين دفَّاتِ الكتب والكلام. فإذا عاد وحاول الاستفاقة من غيبوبته ومعاودة الاتصال بالكون وبالوجود من حوله، استفاق آلة صماء لا تُدرك المعنى الكامن وراء كل صورة من صور الوجود.

لقد قضت مجموعة من البحاثة ومُصوِّري ناشيونال جيوغرافيك خمس سنوات بسفح الهيمالايا، لتصوير ساعتين فقط من حياة وسلوكيات نمر الجبال الجليدية الذهبي المرقط، ومثلهم فريق آخر طوَّف العالم لثلاث سنوات مسجلاً ديوان (هجرات عظمى) الباهر، والذي كشف ما كشفه من ثنايا حياة هذه القوافل المسافرة من شتى أجناس الأرض، رغم أنهم لم يعرفوا ابتداءً ما النفع الذي سيجره كشف تلك الخبايا والأسرار. فما بال المؤمن الذي عرَّفه القرآن بالتسخير الكوني كرامةً له ...؟

وأين هو من هذا السعي القرآني الصميم ؟

• يظن البعض واهماً، أنهم إن أيقنوا أن الله لم يفعل ولم يخلق شيئاً دون حكمة، وأنهم إن فهموا أن معنى الحكمة هو وضع الشئ في موضعه الملائم، فقد فهموا بذلك عن الله حكمته. فهل يا تُرى من عَرَّفَ التقوى لُغوياً بأنها "الخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل"، قد صار بذلك من أهل التقوى؟. بالقطع لا. فمنذ متى يكتسب المرء الخصلة، بمجرد معرفة معناها لُغوياً ؟. إنما الصواب أن تعرف حكمة الله في كل ما خلق وأن تسعى لذلك عمرك كله ليمتلئ قلبك إيماناً بصفة الله (الحكيم)، على الوجه الذي ارتضاه سبحانه، والذي تجسدت آثاره في الكون والمقادير وتصريف شئون الخلق كافة، إنسهم وجنهم وطيرهم ودوابهم ، وسائر المخلوقات الحية، والجمادات .

فتعريف لُغوي ، ودفن للرأس بين كتب الكلام، ليس هو سبيلك المُرتضى. فإن كنت متشككاً، فانظر لقوله تعالى: (أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ) وقوله: (قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)

وتذكر كيف أرى الله تعالى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، فكان إبراهيم من أهل اليقين. وكيف أن الحق مكيالان، مكيال في تشريعات القرآن وإخباراته بالحق، ومكيال آخر في خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق. فكيف سوَّلت للمسلمين أنفسهم تضييع هذا المقدار البالغ من الحق ؟. أليس في كل تفصيلة من تفاصيل الوجود حكمة وعلم تقدير وتصوير وإبراء ووكالة وقيومية وشهادة وأولية وآخرية ..... الخ ؟. فكيف يُخبرك الله بذلك، فتلقي بهذا وراء ظهرك كأنك لم تعلم ولم يأتك نبي ؟. لقد أتاك أمر الله (فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ)، فحقَّ عليك إمعان النظر إلى رحمة الله ... آثاراً وكيفيةً . فهكذا يمتلئ بها القلب، وينفعل بها ويتأثر.

والأمر هو ذاته مع اسم الله (الجميل)، واسم الله (الهادي) الذي هدى كل شئ لدوره في الوجود (ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣)، واسم الله (البارئ)، واسم الله (الحكيم) الذي قضى أي الأشياء يُوجد وأيها لا، ولأي حكمة تُوجد ... وهكذا مع كل اسم وصِفَة. وعام بعد عام، يُناقش بجامعات الدنيا عدد لا يُحصى من أطروحاتٍ الدكتوراة عن الحشرات وحدها دون سائر صنوف المخلوقات، بل عن صنف واحد من الحشرات، بل عن جنس واحد من هذا الصنف. بل عن حشرة بعينها. بل عن مشهد واحدٍ من مشاهد حياة هذه الحشرة الواحدة، كخصلة قنصٍ أو صيد، أو خصلة زواج ووضع بيض، أو خصلة قتال مع مخلوق منافس أو ما شابه ذلك.

فيا من ظننت أنك أحطت باسم لله أو بِصِفَةٍ لهُ، راجِع دينك واتق الله، فتلك وظيفة العمر.

• دور كتاب الدين في المرحلة الجديدة، أي مرحلة إعادة بناء الإنسان المؤمن على الطريقة القرآنية، أن يعالج في كل عام دراسي ذات الموضوعات التي عالجتها المواد الدراسية في الكيمياءً والفيزياء والأحياء والإحصاء. فيدرس الطالب في تلك المواد ماذا وكيف ، أي ماذا يجري من ظواهر الكون والطبيعية، وكيفية حدوث تلك الظواهر (كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ) ثم يُدرَّس بكتاب الدين في ذات العام، فصولاً متتابعة تَنتقي موضوعات بعينها من تلك المواد الدراسية لتتناول (لماذا) تحدث تلك الظواهر، ولم وُجدت هذه الأحياء، ولم صُوِّرت على تلك الصورة، وعلاقة ذلك كله بأسماء الله وصفاته كافة، دون المساس بالسمت العلمي البحت لتلك المواد. كما يتناول كتاب الدين شبهات التكفير، والعنف، والاستحلال، ومعاملة أهل الكتاب، وشئ من فقه الخلاف حسب المراحل التعليمية واستيعاب وتلقي الدارس.

ولكن، هل للعقيدة في الله أثرها في نشاط المسلم العلمي التجريبي ؟

وهل للمنظومة الحضارية الإسلامية طرحها المتفرد، والذي يسعها من خلاله تقديم ما يُعرف بالعلوم التجريبية كوسيلة من وسائل معرفة الإله الحق نفسه ؟

وهل يُعين المسلم عميق معرفته بأسماء الله وصفاته، على السبق في الوصول للنظريات العلمية الصحيحة ؟